مقام الورع عند الصوفيه

بقلم
الأستاذ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الاداب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

الورع من المقامات العالية عند السالكين لطريق الله من الصوفية ، ويعنى الورع الخروج من كل شبهة ، وترك الانسان لما لا يعنيه بوجه عام .

ويقتضى الورع من المتحقق به أن يأكل مما أحله الله من كسب يده ، وهذا مستمد من أدب الاسلام ، فقد روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه » ، وقال صلى الله عليه وسلم لسعد رضى الله عنه : « إن أردت أن يجيب الله تعالى دعاءك فكل الحلال » وقال ﷺ : « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه » .

وقد اشترط شيوخ الصوفية محاسبة النفس محاسبة دقيقة فيما يتعلق بالورع لكى تخرج عن كل ما فيه شبهه ، وفى ذلك يقول يونس بن عبيد : « الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس فى كل طرفة » .

وتحكى لنا كتب الصوفية حكايات عديدة عن المتحققين بالورع ، وكيف كانوا يتورعون عن أكل كل ما فيه شبهة فمن ذلك ما يحكى عن الحارث المحاسبى من أنه كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس أصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

ويحكى كذلك عن بشر الحافى أنه دعى إلى دعوة فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، فما كان أغنى صاحب الدعوة أن يدعو هذا الشيخ !!

وهكذا كان شيوخ الصوفية يحاسبون أنفسهم محاسبة دقيقة فى أمور معاشهم ويخافون الله تعالى ، ويتورعون عن الحرام ، ويتركون كل ما يشتبه عليهم من الأمور ، ويلاقون فى ذلك كل شدة . ولكن شيوخهم قد أبانوا عن طريقة وحددوا معالمه فى وضوح ؛ فيقول الفضيل بن عياض : « يقول الناس : الورع شديد : دع ما يريبك إلا ما لا يريبك . خذ ما حل وطاب من الأشياء وابذل المجهود فى طلب الشىء الصافى من الحلال ، لأن الله عز وجل قال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا » .

وجعل بعض الصوفية للورع ظاهرا وباطنا ، فيقول أحدهم الورع على وجهين : « ورع فى الظاهر وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى ، وورع فى الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواء تعالى » .

قال الشبلى لى : « الورع أن تتورع عن كل ما سوى الله تعالى » .

وفى الرسالة القشيرية أن الحسن البصرى الزاهد المشهور دخل يوما مكة فرأى غلاما من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس موقفه ، فجاء الحسن وقال : يا غلام الدين ؟

فقال : الورع ، قال : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع ، فتعجب الحسن منه ، وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وقد تحمل الشاذلية من الصوفية فى بيان معنى الورع ، واعتبروه مظهرا للعبودية التامة لله تعالى والاعتماد عليه بالكلية ؛ واستمع إلى الشيخ أبى الحسن الشاذلى قائلا : « الورع نعم الطريق . . فقد انتهى بهم (أى بالصوفية) الورع إلى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله ، وبالله ، وعلى البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة . فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ، ولا يختارون ، ولا يريدون ، ولا يتفكرون ، ولا ينظرون ، ولا ينطقون ، ولا يبسطون ، ولا يقبضون ولا يتحركون إلا بإقدار الله » .

وهذا النوع من الورع هو ورع الخصوص من أهل الله ، وهو لا يفهمه إلا القليل ممن اصطفاهم الله بعنايته . ومن أجل ما قيل فى ورع الخصوص قول ابن عطاء الله السكندرى . « اعلم أن حقيقة الورع الخصوص لا يفهمه إلا عليل

« فإن من جملة ورعهم تورعهم من أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره .

« ومن ورعهم وورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب رخلع الأنداد والأرباب .

« ومن ورعهم وورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى نور التجليات .

« ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة تورعا عن الدنيا وفاء ، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء »

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن مقام الورع من المقامات المستندة إلى أدب القرآن والسنة ، وأنه أساس هام فى بناء التصوف .

والمتأمل فيما تحدث عنه شيوخ الصوفية من معانى الورع يحس أننا فى هذا العصر المادى أحوج ما نكون إلى الاستفادة منها . فما أحوج الإنسان منا إلى ترك كل شبهة ، والعزوف عن كل ما ريبه ، وتجنب كل حرام ؛ وحاسبة نفسه فى أمور معاشه كالمأكل والملبس . فإن هذه الأمور تغيب عن بال الكثيرين منا فى هذا العصر الذى يتسابق الناس فيه فى مضمار الكسب المادى تسابقا يعميهم عن محاسبة أنفسهم فى مصادر رزقهم ؛ هل هى مما حرمه الله أم أحله ! إن الناس لم يعودوا يبالون من أين يكسبون ، وليت التاجر والعامل والزارع والموظف يسائل نفسه ويحاسبها حسابا دقيقا فى مصادر رزقه ، وعندئذ يقضى على كل كسب غير مشروع من رشوة أو غيرها

وكذلك نحن أحوج ما نكون إلى ورع الخاصة من الصوفية ، فإن المثل الأعلى الذى رسمه ديننا هو أن نكون مقبلين على الله معرضين عن سواه ، وأن نكون فى هذا على بينة واضحة وبصيرة فائقة ، وأن نكون آخذين عن الله وعاملين لله وبالله ، وأن نكون قانعين بفضل الله غير طامعين فى خلق الله فلا الدنيا تفتننا ولا الآخرة تقطعنا عن العمل لدنيانا .

وهكذا كان الصوفية يفهمون الورع فهما شاملا عميقا ، فهم لم يكونوا يتزوون تأملا وتعبدا . وإنما كانوا يشاركون فى بناء المجتمع السليم ببناء أفراده على أساس من أدب الإسلام وتعاليمه السامية .

بقلم الشيخ التفتازانى